

من التّمرکز حول العقل إلى أفق الكتابة

- قراءة في أصل ودلالة الكتابة عند جاك دريدا -

From Logocentrism to the Horizon of Writing: A Reading of the Origin and Significance of Writing in Jacques Derrida

تاريخ النشر: 2026/06/12

تاريخ القبول: 2026/05/09

تاريخ الإرسال: 2026/01/10

ماريف أحمد¹EMAIL : ahmed.marif@univ-biskra.dz ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، ¹

الملخص:

يعالج هذا البحث إشكالية العلاقة بين الكتابة والكلام في فلسفة جاك دريدا، من خلال مشروعه الضخم الذي قدمه في "علم الكتابة، أو، الغراماتولوجيا *De La Gramatologie*" وهو العمل الذي كتبه عام 1967 رفقة أعمال أخرى وهي "الصوت والظاهرة" و"الكتابة والاختلاف" حيث نجده ينتقد التصور الميتافيزيقي الغربي الذي منح الأولوية للكلام باعتباره حاملاً للحضور والمعنى، في مقابل تهميش الكتابة. إذ لاحظ جاك دريدا أن الميتافيزيكا الغربية تحط من شأن المكتوب أي الكتابة وتعلي من شأن المنطوق فيبين أن هذا التفضيل يقوم على وهم "اللوغوس"، ليقتراح بديلاً يقوم على أولوية الكتابة بوصفها نظاماً أصلياً يؤسس المعنى عبر مفاهيم مثل الاختلاف والأثر والفارماكون، وهو ما يسعى هذا البحث إلى معالجته. من هنا تظهر أهمية الموضوع في الكشف عن الآليات التي يعتمد عليها دريدا في إعادة الاعتبار للكتابة، ويخلص البحث إلى أن الكتابة ليست مجرد تمثيل للكلام، بل هي شرط إمكانه، وأن ما يتعذر قوله داخل نظام الحضور يمكن أن ينكشف عبر فعل الكتابة. وبهذا كانت من أهم نتائج هذا البحث هو الكشف عن أهمية التصور القائل بأولوية الكتابة على اللسان.

الكلمات المفتاحية: الكتابة؛ الغراماتولوجيا؛ الكتابة الأصلية؛ الاختلاف؛ الأثر؛ اللوغوس؛ الفارماكون.

المؤلف المرسل: ماريف أحمد ، الإيميل: ahmed.marif@univ-biskra.dz

Abstract:

This study addresses the problem of the relationship between writing and speech in the philosophy of Jacques Derrida, through his major project presented in *Of Grammatology* (1967), alongside other works such as *Speech and Phenomena* and *Writing and Difference*. In these works, Derrida critiques the Western metaphysical tradition that has privileged speech as the bearer of presence and meaning, while marginalizing writing. He observes that Western metaphysics devalues the written in favor of the spoken, and demonstrates that this preference is grounded in the illusion of the “logos.”

In response, Derrida proposes an alternative based on the primacy of writing, conceived as an original system that constitutes meaning through concepts such as *différance*, trace, and *pharmakon*. This constitutes the central aim of the present study. The significance of this topic lies in uncovering the mechanisms through which Derrida restores the status of writing.

The study concludes that writing is not merely a representation of speech, but rather the condition of its possibility, and that what cannot be expressed within the system of presence can be revealed through the act of writing. One of the main outcomes of this research is thus to highlight the importance of the thesis affirming the primacy of writing over speech, and to show how what cannot be said must be written.

Keywords: Writing; Grammatology; Original writing; Difference; Trace; Logos; Pharmakon.

1. مقدمة:

شكّل الربط بين الحقيقة والحضور الواعي أحد الأسس التي قامت عليها الميتافيزيقا الغربية، حيث جرى منح الامتياز للكلام بوصفه التعبير الأقرب إلى المعنى، لارتباطه بالصوت وبالوعي المباشر. غير أنّ هذا التصور، الذي رسّخ نزعة التمرکز حول



العقل واللّوغوس، لم يبقَ بمنأى عن النقد، خاصة مع بروز المشروع التفكيكي عند جاك دريدا. فقد عمل هذا الأخير على مساءلة البنى الفكرية التي قامت على مبدأ الامتياز والثبات، كاشفًا عن الطابع الإقصائي الذي مارسه الفلسفة الغربية تجاه الكتابة. ولا يتمثل هذا النقد في استبدال مركز بآخر، بل في تفكيك منطق المركزية ذاته، من خلال الكشف عن افتراضاته الضمنية وحدوده المعرفية. ومن هذا المنطلق، يسعى هذا البحث إلى مساءلة أصل ودلالة الكتابة في فلسفة دريدا، عبر طرح إشكالية محورية مفادها: ما الذي يجعل الكتابة تحتل موقعًا تأسيسيًا في مشروع الفلسفي؟ وما معنى الغراماتولوجيا بوصفها علمًا للكتابة؟

ويهدف هذا البحث إلى إبراز التحول الذي اقترحه دريدا من مركزية العقل والصوت إلى أفق الكتابة، مبينًا كيف تصبح الكتابة أثرًا يؤسس لاستمرارية المعنى وتعدديته. كما يعتمد هذا البحث منهجًا تحليليًا ذا طابع تأويلي-تفكيكي، من خلال قراءة نصوص ومصطلحات جاك دريدا قراءة نقدية تكشف عن بنائها المفهومية وآليات اشتغالها، ولا سيما ما يتعلق بمفاهيم الكتابة، والاختلاف، والأثر. ووفقًا لهذا المنهج، سنركّز في هذا البحث على مفهوم الكتابة عند جاك دريدا من خلال محورين أساسيين: يُعنى الأول بتفكيك التمرّكز حول اللوغوس ونقد أولوية الكلام في التراث الفلسفي الغربي، بينما يركّز الثاني على بيان مفهوم الكتابة الأصلية وأسس الغراماتولوجيا بوصفها أفقًا نظريًا يعيد تحديد موقع الكتابة داخل إنتاج المعنى.

وعليه سنتناول في هذا البحث أصل الكتابة عند جاك دريدا محاولين أن نطرح إشكالا محورا يتعلق بموضوع بحثنا وهو كالتالي: ماهو أصل ودلالة الكتابة عند جاك دريدا؟ بعبارة أخرى: ماهي ولمادا الغراماتولوجيا؟ وتندرج ضمن هذه الإشكالية المحورية مجموعة من الفرضيات التي تفترض أن الكتابة عند جاك دريدا لا تُفهم بوصفها مجرد أداة تابعة للكلام، بل كبنية دلالية أصلية تؤسس المعنى. كما تفترض أن ما يُسَمَّى بالتمرّكز حول اللوغوس هو الذي أسّس لأولوية الكلام داخل الميتافيزيقا الغربية، وأن مشروع الغراماتولوجيا يسعى إلى تفكيك هذا التصور وإعادة الاعتبار للكتابة بوصفها شرطًا لإمكان الدلالة وتعددتها.

وقد تمثّلت أهداف هذا البحث في إبراز التحوّل الذي اقترحه جاك دريدا من نقد التمرکز حول العقل والصوت، من خلال إعادة الاعتبار للكتابة بوصفها بنية دلالية مؤسّسة للمعنى، دون اختزالها في مجرد بديل عن الكلام.

فالكتابة في نظره هي الاثر الذي يؤسس للخلود وكل ما أثر وصل إلينا كان بفضل الكتابة، كما أن هذا البحث نسعى من خلاله إلى إبراز أهمية ودور الكتابة من وجهة نظر الفيلسوف جاك دريدا هذا من خلال إعادة بعث التفكير في أهمية الكتابة، في مقابل تلك التوجهات التي لم تُولَّها أيُّ أهمية، وقد اتبعنا في هذا البحث المنهج التحليلي من خلال تحليل الأفكار المتعلقة بموضوعنا خاصة ما تعلق بجاك دريدا ومفهومه حول الغراماتولوجيا.

2. جاك دريدا من أولوية الكلمة إلى أولوية الكتابة

يذهب جاك دريدا إلى إعادة النظر في العلاقة التقليدية بين الكلام والكتابة، مقترحًا تجاوز التصور الذي يجعل من اللغة المنطوقة أصلًا تُشتقّ منه الكتابة، وهو التصور الذي تبنته اللسانيات الحديثة، خاصة في أعمال فردينان دي سوسير، فقد ساد في تاريخ الفلسفة الغربية، منذ بداياتها الكلاسيكية وصولًا إلى الفلسفات المعاصرة، اتجاه يمنح الامتياز للكلام بوصفه حاملًا مباشرًا للمعنى، في مقابل النظر إلى الكتابة باعتبارها نشاطًا ثانويًا أو مشتقًا. وضمن هذا السياق، يندرج مشروع دريدا التفكيكي بوصفه محاولة نقدية تستهدف الأسس التي قامت عليها الميتافيزيقا الغربية، سواء في صيغها المثالية، أو البنيوية، أو الفينومينولوجية، أو الوجودية، من حيث اشتراكها في منطق يمنح المركز للحضور والوعي.

ومن هذا المنطلق، لم يكن نقد دريدا موجّهًا إلى الكلام في حدّ ذاته، بقدر ما انصبّ على البنية الفكرية التي جعلته معيارًا للحقيقة، وهي البنية التي صاغها تحت مفهوم التمرکز حول اللوغوس.

فانطلاقًا من مسألة الكتابة لم يرق لدريدا تفوق الكلام على الكتابة في الفكر الغربي، فلم يكن هدف دريدا استبدال أولوية الكلام بأولوية مطلقة للكتابة، بل تفكيك الأساس الذي أقام هذه المفاضلة، أي المركزية اللوغوسية، مبينًا أن الكتابة تفتح أفقًا نقديًا لتجاوز

هيمنة المعنى الواحد، بدل أن تكون مجرد أداة في مقابل الكلام. لأنّ الكتابة في أفق هذا المشروع، لا تُفهم كأداة تابعة، بل كإمكان نقدي يسمح بتفكيك آليات الهيمنة الدلالية، في حين يظل الكلام، حين يُؤسّس على منطق الحضور، قابلاً لأن يتحوّل إلى وسيلة لإعادة إنتاج السلطة.

وبالعودة إلى جهود دي سوسير نجده " يميّز ضمن تصوره اللساني بين نظامين دلاليين مختلفين، أحدهما يتمثل في اللغة المنطوقة، والآخر في الكتابة باعتبارها نظاماً مغايراً." (الزین م.، 2011، ص 18) ، وهو تمييز لا يخلو من ترانبية واضحة، إذ يمنح دي سوسير الامتياز التحليلي للغة المنطوقة، في حين تُحصر الكتابة في موقع تابع ضمن هذا التصور. "لأن هدف التحليل اللساني عنده ينصرف أساساً إلى البنى الصوتية الحيّة، بينما تُختزل الكتابة في وظيفة تمثيلية لا ترقى إلى مستوى الأصل." (الزین م.، 2011، ص 19) وهكذا فالكتابة عند دي سوسير هي تابعة للكلام، هذا التصور هو ما دفع دريدا إلى توسيع دائرة نقده لتشمل تقليداً فلسفياً طويلاً، اشترك في ترسيخ أولوية الصوت، وإن اختلفت منطلقاته النظرية، موجهاً في الوقت ذاته نقداً لازعاً لكل من ركّز على سلطة الصوت على حساب الكتابة، وفي مقدمتهم دي سوسير كونه " إذ يرى دريدا أن دي سوسير، رغم طموحه العلمي، أعاد إنتاج النظرة التي تُدرج الكتابة في مرتبة ثانوية، وتحيطها بشكّ منهجي دائم." (الزین م.، 2011، ص 20). ومن هنا بلور دريدا مفهوم التمرکز حول الصوت، بوصفه آلية فكرية تمنح النطق امتيازاً أنطولوجياً ومعرفياً داخل الفلسفة الغربية.

فبالإضافة إلى نقده للتمرکز حول العقل في الفلسفة الغربية لأن هذا التمرکز ما هو في نظره إلا نتيجة للتمرکز حول الصوت من خلال إعطاء الأولوية للكلام (النطق) على حساب الكتابة، فقد عبّر الفلاسفة منذ أفلاطون ومرورا بجون جاك روسو ودي سوسير عن نفورهم من الكتابة بخوفهم من قدرتها على تشويه الحقيقة الفلسفية، التي كانوا ينظرون إليها بوصفها حقيقة نفسية داخلية لا تُنال إلا بالتجربة المباشرة، إذ إن تثبيتها في نص مكتوب قد يفصلها عن بعدها الوجداني ويحوّلها إلى معنى جامد قابل لسوء الفهم. (الزین م.، 2011، ص 35). حيث عبّر عدد من الفلاسفة عن تحقّظهم إزاء الكتابة، انطلاقاً

من تصور يعتبر الحقيقة الفلسفية تجربة داخلية مباشرة، يُخشى أن يؤدي تثبيتها كتابيًا إلى فصلها عن بعدها الحي وتحويلها إلى معنى قابل للانغلاق وسوء التأويل.

يُعدّ تفضيل الكلام على الكتابة أحد المداخل الأساسية لفهم النزعات الفكرية التي ربطت إنتاج المعنى بالحضور والوعي، وهو ما أسهم في ترسيخ تصور مركزي للعقل داخل الفلسفة الغربية. غير أن دريدا لم يقتصر في مشروعه النقدي على تفكيك هذه النزعة وحدها، بل وسّع نطاق تحليله ليشمل مختلف البنى الفكرية التي تقوم على منطق المركز والثبات، كاشفًا عن ما تنطوي عليه من افتراضات مضمّرة وحدود معرفية. وسيتعدّاه إلى نقد التمرّكز حول الصوت الذي بدأ مع أفلاطون ومن تلاه من الفلاسفة (روسو ودي سوسير) الذين أقصوا الكتابة وحطوا من قدرها ونزلوا بها إلى درجة ثانية بعد الكلام "إذ لم يكن إقصاء الكتابة عند هؤلاء موقفًا لسانيًا محضًا، بل ارتبط بتخوّف أعمق من فقدان السيطرة على المعنى، وهو ما جعل الحقيقة تُربط بالتجربة النفسية والصوت الحاضر." (الزين م.، 2011، ص 35) وضمن هذا الأفق، يرى دريدا أن تاريخ الكتابة ظل في علاقة توتر دائمة مع علم اللغة، بسبب ارتباطه لثنائيات ميتافيزيقية منحت الامتياز للكلام على حساب الكتابة. (بوزيان، ببلولة، وقسول، اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة، 2011، ص 236) إذ في خلال تاريخ كل الميتافيزيقا الغربية حيث "أدرجت الكتابة، عبر تاريخ الميتافيزيقا الغربية، في موقع ثانوي، سواء في الفلسفات الكلاسيكية أو الحديثة، حيث حُصرت غالبًا في وظيفة التدوين أو التمثيل." (بوزيان، ببلولة، وقسول، 2011، ص 237) وهذا المصير نفسه الذي لاقته الكتابة حتى عند دي سوسير الذي تُمثّل الكتابة عنده زيفًا وخداعًا يهدد تماسك ووحدة اللغة المنطوقة، كما حصر دي سوسير الكتابة ضمن أنماط تمثيلية مختلفة، سواء أكانت صوتية أم رمزية، منطلقًا من افتراض مفاده أن الكتابة، في جميع أشكالها، تحافظ على تبعيتها للدال الصوتي بوصفه المرجع الأصلي للغة، وهو ما يجعل تصوره اللساني مندرجًا ضمن أفق اللوغوس الغربي

من هذا المنطلق، لا تُفهم الكتابة عند دريدا بوصفها نقيضًا للكلام، بل باعتبارها بنية تكشف انفتاح المعنى على الغياب والتعدد، بما يمنحها استقلالًا عن حضور المتكلم دون الحاجة إلى تكرار المقابلة التقليدية بينهما. ونقش العلامات يعطي المعنى استقلالًا

وحرية وفصلا عن المؤلّف الأصلي، مما يمنح الكتابة لا نهائية التفسير، على عكس الكلام الذي يقتضي حضور المتكلّم والمتلقّي في الوقت نفسه.

3. الكتابة الأصلية ودورها في نشر الوعي

يرى دريدا أن التحقّط إزاء الكتابة في التقليد الغربي لا ينفصل عن كونها تفلّت من الضبط المباشر للوعي، وهو ما يفسّر اهتمامه الخاص بها بوصفها مجالاً يكشف حدود السيطرة على المعنى. وهذا ما جعله يهتم بها، وهي أيضا قفزة نحو المجهول دون أي مرشد أو رقيب، دون وصية أو حتى دعم إلهي وهي إبحار بعد وضع كل إيمان جانبا، ومن ثمّ يتجه اهتمام دريدا إلى الكتابة بوصفها مجالاً يكشف حدود التحكم في المعنى، لا باعتبارها مغامرة مطلقة، بل باعتبارها ممارسة دلالية تنفتح على احتمالات التأويل.

فبالنسبة لدريدا كما يقول في الكتابة والاختلاف: "أن مفهوم الكتابة لا يقتصر على الفعل الخطي أو النصي، بل يشمل كل نسق دلالي يقوم على الإحالة والتأجيل والأثر، بما في ذلك الكلام نفسه. وبهذا المعنى، تصبح الكتابة الأصلية بنية سابقة على التقسيم التقليدي بين الصوت والكتابة، إذ لا تحيل إلى أصل ثابت، بل إلى شبكة من العلاقات الدلالية المتحركة." (دريدا، الكتابة والاختلاف، 2000)، والكتابة الأصلية عند دريدا هي ملازمة لكل فعل الكلام، وهو هنا لا يهدف إلى إقصاء الصوت أو الكلام بل يجعل منه حاضرا غائبا بتحويله إلى كتابة أصلية يغيب فيها الكاتب ليلعب الدال والمدلول لعبة التجلي والتخفي المتواصلة والتي لا تخدم نارها مطلقا مخلقة وراءها الرماد الذي يوقد الشعلة مجددا والذي يحوي قدرة الانبعاث من جديد.

وبيّن روسو، في بحثه حول أصل اللغات، نزوعاً واضحاً إلى تفضيل ما يمكن تسميته كتابةً طبيعية، يربطها بالقيمة الأولى للوعي وبالصوت بوصفه تعبيراً مباشراً عن البعد الروحي للذات.

أما بالنسبة لأفلاطون فإن دريدا يخصص دراسة مطولة له في مؤلفه الصيدلية باحثاً عن الخلفيات الميتافيزيقية التي جعلت أفلاطون يحط من شأن وقيمة الكتابة، ويتم ذلك من خلال قراءته لأسطورة توت الواردة في محاورة فيدروس، والتي تكشف، بحسب دريدا، عن التوتر العميق بين الكلام والكتابة في التصور الأفلاطوني. إذ يُفهم من الخطاب الأفلاطوني

أن الكتابة لا تعزّز الذاكرة بقدر ما تُضعفها، لأنها تستبدل الفاعلية الحيّة للكلام بآلية خارجية جامدة. ومن هنا يميّز أفلاطون بين نمط من الذاكرة يقوم على الحضور والتذكّر الفعلي المرتبط بالكلام، ونمط آخر متصل بالكتابة يُنظر إليه بوصفه ذاكرة زائفة ينبغي الحذر منها.

من هنا تكون الكتابة في نظر أفلاطون تشبه الفارماكون **Pharmakon** هذه اللفظة التي تعني السم والدواء، وفي هذا السياق يذهب بعض الشراح، مثل روجي لا بورت، إلى أن أفلاطون يقيم تعارضاً جذرياً بين الكتابة واللوغوس، حيث تُقابل الكتابة بالمظهر الخارجي في مقابل الحقيقة، ويُعاد إنتاج ثنائية الذاكرة الحيّة المرتبطة بالحضور، والذاكرة الميتة التي تمثلها الكتابة: "إن الكتابة تتعارض مع اللوغوس كما يتعارض الظاهر مع الحقيقة وينبغي الحذر من الكتابة لنفس أسباب الحذر من السفسطائيين، إنّ أفلاطون يقابل بين ذاكرتين الحسنه والقبيحة/الذاكرة الحية، تذكّر، أو إعادة جمع أو ذاكرة داخلية أو حضور أمام الذات، ومن جهة أخرى ذاكرة ميتة تحاكي المعرفة المطلقة وتأخذ اسم الكتابة، فمن الأفضل الاستغناء عن الكتابة، بل من الأفضل عدم اللجوء نهائياً إلى هذا الفارماكون هذا الدواء الذي أتى ليخفي ضعف الذاكرة الحسنه، ذاكرة الذات نفسها" (صديقي، 2013، ص 188) ويمكن فهم موقف أفلاطون من الكتابة ضمن الإطار العام لفلسفته خاصة نظريته حول المثل.

ولمواجهة ما يصطلح عليه دريدا بميتافيزيقا الحضور التي هيمنت على أنظمة الفلسفة الغربية والتي تكوّنت بفعل تلك النزعة الفكرية التي جعلت من العقل والحضور الذهني مصدر المعنى والحقيقة، وانطلاقاً من هذا التشخيص، يتوسل دريدا بما يسميه بالغراماتولوجيا، أي علم الكتابة، لا بهدف استبدال مركز بآخر، بل لإعادة مساءلة العلاقة غير المتكافئة التي أقيمت تاريخياً بين الكلام والكتابة.

فكما صاغ دريدا مفهوم التمرکز حول اللوغوس للكشف عن هيمنة العقل والصوت في الفكر الغربي، فإنه يوظف مفهوم الغراماتولوجيا لتحليل الكيفية التي أُقصيت بها الكتابة، رغم كونها ممارسة دلالية سابقة على هذا التمرکز، ويستند هذا المفهوم إلى جذور لغوية

يونانية تحيل إلى فعل النقش والممارسة الكتابية، بما يبرز أن الكتابة ليست مجرد أداة تقنية، بل نسق دلالي له استقلاله ووظيفته المعرفية.

فهدف دريدا هو كشف جملة الممارسات الإقصائية التي تعرضت لها الكتابة في الفكر الغربي والإعلاء من شأن الكلام. فإن الوجه الآخر لذلك الهدف هو التفكير جدياً في ضرورة قلب ذلك التّصوّر الذي منح أفضلية للكلام على حساب الكتابة، وبدل النظر إلى الكتابة باعتبارها امتداداً ثانوياً للكلام، يقترح دريدا إعادة التفكير في هذه العلاقة على نحو يُفهم فيه الكلام نفسه كأحد تمظهرات البنية الكتابية الأوسع.

وقد ظهر اهتمام دريدا بهذا الموضوع في خضم العناية الحديثة بموضوع الكتابة وأصولها ووظائفها. وبتأسيسه وإعلانه عن الغراماتولوجيا، يميّز دريدا بين كتابة تظل خاضعة لمنطق التمرکز حول اللوغوس، حيث تُختزل في نقل الصوت، وكتابة أخرى تنتهي إلى أفق الغراماتولوجيا، بوصفها البنية التي تُنتج اللغة ذاتها ولا تكتفي بتمثيلها. بوزيان، بلبولة، و قسول، 2011، ص118) فقد سعى دريدا إلى منح الكتابة دوراً جديداً وخلاقاً فهو يرى أنّ الكتابة هي أصل كلّ الأنشطة الثقافية.

وقد صاغ دريدا مشروع الغراماتولوجيا بوصفه أفقاً نقدياً يتجاوز حدود السيميولوجيا السوسيرية، ساعياً إلى إعادة النظر في الأسس التي حددت موضوع العلامة ووظيفتها. ولا يتمثل هدفه في التوفيق بين الكتابة والكلام، بقدر ما ينصرف إلى مساءلة العلاقة الهرمية التي جعلت الكتابة تابعة للكلام، إذ يمنحها وضعاً نظرياً مستقلاً بوصفها شرطاً لا غنى عنه لكل ممارسة دلالية. ويستند هذا التّصور إلى اعتبار أن مختلف أشكال التنظيم الاجتماعي تقوم على أنماط من الأثر، سواء تجلت في علامات أو حسابات أو أشكال من التوثيق، بحيث يغدو الأثر شرطاً أولياً لقيام أي مجتمع. وضمن هذا الأفق، يرى دريدا أن المعنى لا يُفهم خارج اللغة ولا يتجاوزها، وأن المفاهيم الميتافيزيقية الكبرى ليست سوى نتاج عمليات مجازية واستعارية، وهو ما يجعل الكتابة عملية مفتوحة تقود دائماً إلى مزيد من الكتابة ضمن سلسلة لا نهائية من الإحالات.

يسعى دريدا، من خلال مشروع الغراماتولوجيا، إلى إعادة التفكير في موقع الكتابة ضمن النسق الفلسفي الغربي انطلاقاً من منظور مغاير للتصورات السائدة. فإذا كان التقليد

الميتافيزيقي قد همّش الكتابة وحصرها في وظيفة ثانوية، فإن دريدا يعمل على إعادة منحها وضعاً نظرياً مستقلاً وفاعلاً" (بوزيان، بلبولة، و قسول، 2011، ص 255). وفي هذا السياق يقترح مفهوم «الكتابة الأصلية» للدلالة على أن الكتابة لا تأتي بوصفها لاحقة للكلام أو مجرد تمثيل له، بل باعتبارها بنية سابقة تؤسس لإمكان المعنى نفسه. ويقود هذا التصور إلى النظر في الكتابة بوصفها ممارسة إنسانية متجذرة في أقدم أشكال التنظيم الحضاري، تقوم على قواعد وبنى خاصة، بينما تُفهم العادات الصوتية واللفظية بوصفها تحولات لاحقة داخل هذا الأفق الدلالي الأوسع. (مهيبيل، 2007، ص 16).

يتعامل دريدا مع الكتابة بوصفها ممارسة مؤلّدة للمعنى، إذ لا تكتفي بنقله، بل تعيد تشكيله في صيغ قابلة للتداول والتأويل دون نهاية محددة. فالكتابة عنده لا تُفهم كملحق للكلام، بل كأصل بنيوي يرافق الوجود الإنساني منذ دخوله في النظام الرمزي (الزّين م.، 2008، ص 205)، ويستمر أثرها في تشكيل هويته ومساره. ومن هذا المنطلق، تصبح الكتابة الوسيط الذي تُحاكي به التجربة الإنسانية، وتُرسّم من خلاله ملامح الثقافة، كما تُؤسس عبره القوانين والطقوس. وهي لا تحجب الحقيقة بقدر ما تُجلبها في صورة أثر مادّي، في تعارض واضح مع التصور الأفلاطوني الذي ربط الحقيقة بالحضور النفسي. كما يكشف دريدا، من خلال مفهوم الفارماكون، عن الطابع المزدوج للكتابة، ويبين أن النص الفلسفي ذاته ينطوي على توتر داخلي، إذ يقاوم الكتابة ويستند إليها في آن واحد، مما يستدعي قراءة متكررة قادرة على تفكيك بنياته الظاهرة والكشف عمّا يتوارى في هوامشه وبين سطوره. (الزّين م.، 2008، ص 207)

ينظر جاك دريدا إلى الكتابة بوصفها فعلاً يحرّر النص من الارتباط المباشر بمؤلفه، ويمنحه قدرة على الاستمرار والتداول حتى في غياب من أنشأه. ويرتبط هذا التصور بعلاقة الكتابة بالموت، وهي العلاقة التي سبق أن أشار إليها فوكو وبارث، حيث يرى دريدا أن الكتابة تنفصل عن الصوت الحيّ وعن حضور الذات المتكلمة، الأمر الذي يجعلها تهدد التصورات التقليدية للعقل والتاريخ القائمين على وعي الذات بنفسها، وتدفع بهما نحو التحوّل والانقطاع. (صديقي، 2013، ص 193)، ومن هذا المنظور، لا يعلن دريدا عن موت الكتاب بقدر ما يعلن عن أقول الامتياز الذي منحه الميتافيزيقا الغربية للكلام، إذ

يشير هذا التحوّل إلى انتقال جديد في تاريخ الكتابة، بل وفي فهم التاريخ ذاته بوصفه ممارسة كتابية. (صديقي، 2013، ص 193) ويتجلى هذا الفهم حين يوسّع دريدا مفهوم الكتابة ليشمل كل ما يجعل التدوين ممكناً، سواء تعلق الأمر بالعلامات اللغوية أو بالأنساق الرمزية التي تتجاوز العلاقة المباشرة بين الدال والمدلول، لتشمل كل أشكال التسجيل والتثبيت، سواء كانت حرفية أو غير حرفية. (دريدا، 2008، ص 9)، ويستدل دريدا على أسبقية الكتابة بأن أشكالها الأولى لم تكن لفظية، بل تجسدت في صور ورموز مرسومة، مثل النقوش والتصاویر والكتابات الهيروغليفية، وهو ما يعني أن التعبير البصري سبق التلفظ الصوتي وأسهم في تشكّله، " (كوفمان و لاـبورت، 1994، ص 26)

ويعطي دريدا للكتابة ثلاثة خصائص وهي:

"1- أن الإشارة المكتوبة هي علامة يمكن تكرارها، ليس فقط بغياب الذات التي تطلقها في سياق معين، بل أيضاً لمتلقي معيّن.

2- إن الإشارة المكتوبة يمكن أن تخترق سياقها الواقعي وأن تقرأ في سياق مختلف بغض النظر عما نواه كاتبها منها.

3- الإشارة المكتوبة عرضة للإنزواء بمعنيين: الأول إنها منفصلة عن بقية الإشارات في سلسلة معينة، والثاني أنها منفصلة عن الإحالة الحاضرة، أي أنها تشير إلى شيء لا يمكن أن يكون حاضراً فيها" (صديقي، 2013، ص 193.192) ونجد دريدا يستخدم مصطلح الكتابة الأولى وهذا التعبير مستقى من فرويد وقد استعمله للإشارة إلى اللاوعي، وقد استعمل دريدا هذا المفهوم مرات عديدة في مؤلفه الكتابة والاختلاف معلناً أن "الكتابة تعدّ استكمالاً للإدراك حتى أن يعي الإدراك نفسه.

4. من مركزية العقل إلى مركزية الكتابة

في سؤال حول إذا كان دريدا يحاول أن يؤسس لمركزية الكتابة في مقابل مركزية العقل يوضح دريدا هذه المسألة عندما يصرح أنه لا ينطلق في من إقامة مواجهة بين الكتابة والعقل، ولا من استبدال مركز فكري بآخر، بل من تفكيك منطق المركزية ذاته. فمشروعه في علم الكتابة لا يُقصد به الدفاع عن الكتابة ولا إعادة الاعتبار لمفهومها

التقليدي، وإنما مساءلة الأسس التي جعلت الكتابة تُهمَّش تاريخياً. فقد جرى النظر إليها، منذ الفلسفة الأفلاطونية، بوصفها تابعة وثانوية قياساً بالكلام الذي اعتُبر الأصل الحيّ والشرعي للمعنى بحكم ارتباطه باللغوس، (دريدا، 1992، ص 18).

وقد كتب دريدا كلمة اختلاف *Différance* بالحرف *a* عوض الحرف *e* الذي تكتب به غالباً في اللغة الفرنسية، وكتابة دريدا للاختلاف بالحرف *a* عوض *e* لكونه لاحظ أن الحرف *a* يكتب ويقرأ، ولكن لا يمكن سماعه "مما يعني أن الكتابة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكننا من مقارنة هذه الكلمة لأنه يتعذر على السمع إدراك الفرق بين الحرفين، فهو إذاً اختلاف خطّي محض. وهدفه من القيام بهذا العمل واضح، وهو تقويض دعائم ميتافيزيقا الحضور. إنّ دريدا يقلب المعادلة التقليدية حيث يصبح النطق هو الثانوي قياساً إلى الكتابة،... وكل هذا سيوجه اهتمامنا نحو ما هو مكتوب". (صديقي، 2013، ص 194)

يقترح دريدا مفهوم الكتابة الأصلية للدلالة على أن الكتابة لا تأتي بعد الكلام كما كان سائداً في التراث الغربي، أو هي مجرد تمثيل له، "فالكتابة الأصلية تمثل التصور الجديد الذي يتجاوز الضرورة التي أملت إجراءات استعمال المفهوم المبتذل للكتابة" (بوزيان، بلبولة، و قسول، 2011، ص 255) وهكذا يبدو أن التأسيس لنظرية الكتابة الأصلية ستغدو مفتاحاً لفهم و ترسيم علم الكتابة. وهي كتابة لا تهدف لأن تكون أصلاً للوجود خاصة وأن دريدا عمد منذ البداية إلى تفكيك فكرة الأصل، وعليه فإن فكرة الكتابة الأصلية لا تقدم نفسها كأصل وإنما "كل ما تمثله هو كونها تقدم نفسها كشكل للوجود، أو كبنية يشكلها الأثر الأصلي" (بوزيان، بلبولة، و قسول، 2011، ص 255).

فنحن حينما نعتقد أننا قد توصّلنا إلى أفكار جديدة، نجد في الحقيقة نعيد معالجة أفكار موجودة من قبل بأسلوب مختلف. ويظهر ذلك بوضوح في مفاهيم دي سوسير اللسانية، التي اعتبرت نقلة نوعية في دراسة اللغة، لكنها في جوهرها قامت على إعادة ترتيب تصوّرات سابقة ضمن إطار نظري جديد.

5. خاتمة:

وعليه، يمكن الجواب عن الإشكالية المطروحة بالقول إن الكتابة تحتل موقعاً تأسيسياً في فلسفة جاك دريدا، لا بوصفها بديلاً عن الكلام، بل باعتبارها البنية التي تكشف أن

المعنى لا يقوم على الحضور والثبات، وإنما على الاختلاف والتأجيل. وبهذا المعنى، فإن الغراماتولوجيا لا تُعيد ترتيب العلاقة بين الكلام والكتابة فحسب، بل تُفكّك الأسس الميتافيزيقية التي منحت الامتياز للصوت داخل الفلسفة الغربية.

ومن هذا المنظور، تفتح الكتابة آفاقاً جديدة أمام البحث الفلسفي المعاصر، إذ تتيح التفكير في المعنى خارج منطق الإغلاق واليقين، وتدفع نحو مقاربات نقدية تُراعي التعدد والانفتاح والتأويل المستمر، وهو ما يجعلها أداة إبستمولوجية لفهم النصوص وإعادة قراءتها بدل الاكتفاء بتلقيها.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نتبنّى موقفاً مفاده أن الكتابة تُعدّ في الفلسفة أكثر قدرة من الخطاب الشفهي على إنتاج المعنى وتداوله، لأنها تتحرّر من سلطة الحضور المباشر، وتتيح إمكانات أوسع للتأويل والنقد، كما تمنح النص استقلاله واستمراره عبر الزمن، بما يجعلها المجال الأخصب لممارسة التفكير الفلسفي.

فجاك دريدا يكون بهذا قد أحدث تحوّلاً نوعيّاً في النظر إلى الكتابة، متنقلاً بها من موقع التبعية إلى أفق تأسيسي للمعنى. فمن خلال نقده للتمركز حول العقل والصوت، أعاد دريدا مسألة الأسس الميتافيزيقية التي حكمت الفكر الغربي، كاشفاً عن محدودية منطق الحضور. وتبرز الغراماتولوجيا، في هذا السياق، بوصفها مشروعاً نقدياً يسعى إلى تحرير المعنى من الثبات والانغلاق، وفتح إمكانات جديدة للتفكير الفلسفي تتجاوز الثنائيات التقليدية. وهو ما يجعل من فلسفة دريدا إسهاماً حاسماً في تجديد الفكر الفلسفي المعاصر.

3. قائمة المراجع:

1. جاك دريدا. (1992). مواقع حوارات. (فريد الزاهي، المترجمون) الدار البيضاء المغربية: دار توقيبال للنشر.
2. جاك دريدا. (2000). الكتابة والاختلاف. (كاظم جهاد، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: دار توقيبال للنشر.

3. جاك دريدا. (2008). في علم الكتابة. (أنور مغيث، و منى طلبة، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
4. دليل محمد بوزيان، مصطفى بلبولة، و ثابت قسول. (2011). اللغة والمعنى مقاربات في فلسفة اللغة. تأليف مصطفى معرف، التصور الغراماتولوجي للغة في فلسفة جاك دريدا. الجزائر: منشورات الاختلاف.
5. ساره كوفمان، و وؤجي لابورت. (1994). مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الاثر. (إدريس كثير، و عز الدين الخطابي، المترجمون) أفريقيا الشرق.
6. علي صديقي. (2013). التفكيكية تفويض ميتافيزيقا الحضور وفكرة الأصل،. مجلة الازمنة الحديثة (6-7).
7. عمر مهبيل. (2007). من النسق إلى الذات، قراءات في الفكر الغربي المعاصر. الجزائر: منشورات الاختلاف.
8. محمد شوقي الزين. (2008). الإزاحة والاحتمال. الجزائر: منشورات الاختلاف.
9. محمد شوقي الزين. (2011). جاك دريدا ما الآن؟ ماذا عن غد؟ - الحدث، التفكيك، الخطاب. تأليف وليد عثمان، التفكيك الجينالوجيا، المقولة، والمصطلح. الجزائر: منشورات الاختلاف.
10. محمد شوقي الزين. (2013). التفكيك في النص وفي الواقع، مدخل إلى فلسفة الهوامش والظلال. مجلة الازمنة الحديثة (6-7).